

❦ وداع القرن ❦

من تأمل كرور الادهار وتعاقب الليل والنهار ورأى النواني
تجرّ الايام والايام تجرّ الاعوام والناس يذهبون بين ذلك افواجاً ويمرون
فُرادى وازواجاً ورأى ان هذه الحركة التي نرى بها الشمس تطلع من
المشرق ثم نراها تغيب في المغرب يتخللها من حركات دقائق الكون ما
يمثل ديب عوالم الفناء حتى يردّ كل منظور الى عالم الهباء وقف
حائراً دهشاً يتأمل في الكائنات وفي نفسه وقد اختلط عليه الوجود
بالعدم حتى كاد يتهم شواهد حسّه ثم نظر فتمثل وراءه ماضياً تغيب
اوائله في ظلمات الازل وامامه آتياً تتصل اواخره بحواشي الابد وهو
بينهما كنفخة قذفها التيار فوق اديم البحر فما كاد يقع عليها ضوء الشمس
حتى عادت اليه فغاصت فيه آخر الدهر فلكه من الرهب ما ارتعشت
له اعضاءه ومن الاشفاق ما جددت له دماؤه ثم تمنى لو تخلص من
هذا الوجود المشوه وايقن ان الكون ضرب من الزور المموّه انما هي
صوره تتبدل واشكاله تتحوّل وهي المادّة الى ان تتحلّ الارض وينتثر
نظام السيارات والاقمار وتبدد ذرات الشمس في الفضاء فيمحي رسمها
من صحيفة الادهار

ودّعنا القرن التاسع عشر كما يودّع المرء يومه عند انقضائه وقد
تذكر ما لقي بين صباحه ومساءته وما تقلّب عليه من حالي كدره وصفائه

ثم استشف من خلال ليله المقبل وميض صباح الغد باسمًا عن ثغور الآمال
مبشراً بما فاتهُ في يومه من الغبطة ونعمة البال فبات يعد نفسه المواعيد
ويرى كل بعيدٍ من الاوطار اقرب اليه من جبل الوريد وقد ذهل
اكثرنا عن انه يُودّع شطراً من دهره وقد يكون من بعضنا اطيّب شطري
عمره فاذا التفت الى خلفه رأى خيال نشأته وشبابه وتمثلت له اوقات
لذته ومجالس اترابه والصفحة التي ارتسم عليها تاريخ ميلاده ودؤن
فيها تذكّار ابهج اعياده فحنّ الى ايامه السوابق حنين المحبّ المفارق
وقد حيل بينه وبينها وطويت عليها صحيفة القنّاء وختم عليها بطابع الابد
فهي هناك الى يوم اللقاء



نحن اليوم بين فصلين من مصحف تأريخ الدهور وقد قرأنا الاول
حرفاً حرفاً واستقرينا ما فيه من السطور والثاني مطويّ عنا نشتغل بهجاء
الحرف الاول من عنوانه ولا ندري ما خطّ فيه قلم الغيب من غرائب
حديثانه فنَدّع التكهّن عليه لخراصي السياسة واصحاب الجفر والكواكب
ونعود الى تصفّح ما مرّ بنا من صحف القرن الذاهب وما سطر فيها
من البدائع والغرائب فلا جرم انه كان من اعظم القرون آثاراً واجلّها
شأنًا واشرفها تذكّاراً بل القرن الذي لم يمرّ بالارض مثله من يوم
تحركت على محورها فنشأ الليل والنهار ومنذ دارت حول الشمس فتتابعت
السنون والاعصار فهو على الحقيقة بكر الزمن وان كان آخر ما مرّ بنا
من اعقابه ومجدّد شباب الدهر بعد الهرم لا بل هو عين شبابهِ ففيه

اخذت الدنيا كمال زخارفها وبرزت الحضارة في ابهى مطارفها وانتشر العلم في الارض انتشار نور النهار فانبسطت اشعته على كل قصي من الاقطار وتجلّى به كل مكنون من الحقائق والآثار واصبح الانسان خدن الطبيعة وقد حسرت له من نقابها والقت اليه مقاليد جوّها وترباها بل استسلمت اليه بجملتها حتى كان من اربابها فبرز في حدّ جديد غير ما عرفه به حكماء الدهر السابق وادرك بسطة من العرفان يضيق بها نطاق تعريفه بالحيوان الناطق فهو اليوم الحيوان المكتشف المخترع المتفنن المبتدع الطيّار على مناصب الهواء الماشي على صفحات الماء الذي زوى اطراف الارض فهي بين يديه قيد ميل او شبر وطوس مسافاتها حتى كأنما يسافر فيها على اجنحة الفكر وقبض على عنان البرق فجعله رسول خواطره يسيّره في البلاد وساح بين الكواكب فادرك حركاتها وطبائعها وقاس ما بينها من الابعاد وخلق لنفسه حواس لم تكن مما عهد اسلافه من قبل فابصر من الخفايا ما لا تُذكر في جنبه مدارج النمل وسمع من الاصوات ما لا يقاس بنخفائه صوت الحُكل^(١) بل خرق الحُجب ببصره فتخلل ما بين دقائق الاجسام واستبطن الضلوع والاحشاء وسافر بين الجلود والعظام بل تسلل الى باطن الدماغ فاسترق السمع على ما يتناجي هناك من الخواطر والاهوام

(١) هو من الحيوان ما لا يسمع له صوت كالذرّ والنمل . قال رؤبة بن العجاج

لو اتيت اوتيت علم الحُكل علم سليمان كلام النمل

كنت رهين هرم او قتل

هذا هو انسان القرن التاسع عشر وما ذكرنا من صفته الا مبلغ ما يتناوله الرمز ويسعه الايمان. ولو شئنا الافاضة في ايسر تلك المعاني لكان غاية ما ننهي اليه العجز والاعياء. فما عسى ان نعدد من تلك العجائب الباهرات مما لو وجد اقله في الزمن الغابر لاعتقد ضرباً من السحر او انتحلت به الكرامات والمعجزات وحسبك من يلقي الجماد فينطق لا كما نطق البيغاء ومن يسمعك كلام الغابرين فتعرفه بنعمته وقائله في قبضة الفناء ومن يريك الهواء ماء سائلاً ثم يريكه جمداً معقوداً ومن يسخر السحاب فيه طر في معمعان القيظ ماء بروداً ويصرفه متى شاء فيبدد ما فيه من الصواعق تبديداً الى غير ذلك مما يطول الكلام في استقصائه. ويضيق هذا المقام عن احصائه.

وهنا قد يعرض للمتأمل ان ينظر اين كان موضع كل امة من القرن التاسع عشر وما الذي اكتسب الشرقي فيه من المآثر وما خلف فيه من الاثر فلا جرم ان اهل القرن الواحد وان شاع بينهم فتنازعوا ايامه على السواء وكانت عناصر الحياة مقتسمة بينهم على غير اثر ولا استثناء فهيئات ان تستوي نسبة كل منهم اليه فيقفوا فيه مواقف الاكفاء. وانما الذي يتساوون فيه شمسهم وهواؤهم وتربتهم ومآؤهم وبقي وراء ذلك فضل المدارك والهمم والاعمال التي تتفاوت بها طبقات الامم وتتفاضل باعتبارها الاقدار والقيم. فاذا كان القرن التاسع عشر هو الذي نشأت فيه تلك العظام واقام للحضارة هذا البناء الرفيع الدعائم فهو من

القرون التي ليس للشرق فيها ذكرٌ يؤثر ولا اثرٌ يذكر ولا خرج
الشرقيّ منه الا بما احتقب من ظلمات العصور الغوابر وازداد عليه ما
لحقه في هذا العصر من الذلّ والمفاقر فلا اختطّ لنفسه سبيلاً يبلغ به
الى مواطن الفلاح ولا اقام له عزّاً يعصمه من تطاول الطامع والمحتاج
فضلاً عن ان ينشئ لنفسه نخراً يدوّن في صحيفة الاحقاب او اثراً يرفع
من بصر الذراري والاعقاب ولكن عصر الشرقيّ ان نشط للجري في
سبيل الامم الراقية والحصول على المجد الصاعد والمفاخر الباقية هو
هذا القرن الذي ابتدأناه عن أمم اذا جعل رائده الى ذلك صادق الهمم
ولم يتكل في بلوغه على الاقدار والقسم والله المسؤول ان يهدي خطواتنا
الى اقوم سبيل بفضلہ تعالى وتسديده انه بالنجاح كفيل وهو حسبنا
ونعم الوكيل

﴿ فضائل القرن التاسع عشر ﴾

بقلم حضرة الكاتب خليل افندي الجاويش

اذا اردنا ان نعرف كنه القرن التاسع عشر وندرك قيمته حق الادراك
وجب علينا ان نعقد مقارنةً بينه وبين تاريخ الانسان منذ نشوئه الى الآن
لانه زبدة العصور الخوالي ومجموع ما اتى به الاواخر والاوالي . غير ان
الانسان مهما كان واسع الاطلاع قوي الحافظة مجيداً في الوصف فانه يحار
ويثبه في تعديد ما خلفه القرن العابر من آثار حسنة وبدائع تجلّ عن
البيان وغرائب صيرته « بمنزلة الربيع من الزمان » ولذلك رأيت ان اجتري